المحاضرة الأولى المستوى: الثانية ليسانس

الفرع: دراسات لغوية الأفواج: 1- 2

الموضوع: **إرهاصات النقد المعاصر**

مدخل:

يتمحور أفق الخطاب النقدي المعاصر حول قضايا: مركزية الإنسان، شؤون المرأة، أدب الآخر والأدب الكولونيالي، والدراسات الثقافية، التأويل ...**إلخ**. وتعدّ المرحلة التاريخية الراهنة مرحلة النقد، بدأت مع "كانط" في نقد العقل الخالص، وماركس في نقد الاقتصاد السياسي، ونقد الأدب الذي بدأ يأخذ شكله الأكثر موضوعية منذ حوالي ما يزيد عن نصف قرن عندما طُرح سؤال ما إذا كان بالإمكان قيام علم الأدب؟ ويُنظر إلى **اللحظة الكانطية**: على أنها مرحلة فارقة في تاريخ الدراسات النقدية، إذْ هي عبور بطولي من الوثوق إلى النقد، «**إن عصرنا ينفرد بالنقد الذي يتعين أن يخضع له كل شيء**» كما قال كانط.

- تطورت في العصر الحديث الحركة النقدية وبلغت حدا من النهضة أن استوعبت العلوم والفنون والتيارات الفلسفية والفكرية، وتوزعت النقد المعاصر مناهج سهلت مساءلة الأعمال الأدبية والكشف عن قيمها الفنية والفكرية والإيديولوجية، وقد تمّ له ذلك بعد عملية التظافر المنهجي التي حصلت مع المناهج الفنية والعلمية والفلسفية. وعليه يمكن القول إن النقد منذ نشأته الأولى إلى اللحظة الراهنة قد تنازعته ثلاث سلطات: 1- سلطة المبدع (المناهج السياقية)، 2- سلطة النص (المناهج النسقية)، 3- سلطة القارئ (مناهج ما بعد الحداثة) (*). ترى ما هو الإطار الفني والفكري والفلسفي الذي ترعرع في أحضانه النقد الحداثي؟ إن الحقيقة التي نلج بها النقد الحداثي هي أن النظريات والمفاهيم ولآراء النقدية التي يجمعها إطار الفكر البنيوي.

قلنا النقد بالمعنى العام «نشاط بشري يعبر عن حاجة إنسانية اجتماعية أساسية، وهي ممارسة تستعين بمعطيات العلوم الإنسانية والطبيعية بل تطمح أحيانا أن تتوجه بذاتها نحو العلمية لكي تصبح علما. إذًا الممارسة النقدية – في مستوى ما- حوار مع النصوص»[1]، **وذلك من منطلق الوعي النقدي الذي يضع كل شيء موضع المناقشة والمساءلة**. فالنقد استعارة لفعل القراءة، هذا الفعل الذي لا ينضب.. وإذا كانت دلالة التأويل لا تتضمن قواماً معرفياً فإن ما يقوله النّاقد يضاف إلى العمل.

شغل النقد الأدبي عبر تاريخه الطويل بالإجابة عن أسئلة هامة تتصل بمصدر النص وماهيته وتفاعلاته الذاتية والموضوعية وكيفية تناول النص الأدبي، وسبل اصدار الحكم النقدي... الخ. ويبدو أن الانجازات التي تمت في هذا المجال غير ذات معنى بالغ بالنسبة للنقد الجديد أو المعاصر.

فالنقد الجديد لا يعتني بالبحث عن إجابات بمقدار ما يهتم بإثارة الأسئلة والتساؤلات التي تدور في معظمها حول "النص". وتدور بعض أسئلة النقد الجديد حول أمور تبدو وكأنها بديهية أو مسلّم بها. ولكن من الهام أن نعرف أن النقد الجديد لا يعترف بوجود مسلمات أو بديهيات في ميدان النقد. إن ما كان مفقودا في النقد السياقي هو الاهتمام بالنص الأدبي في ذاته، والمبادئ المتحكمة في أدبيته

فالنقد الجديد يهتم بسؤال محوري هو: ما النص الأدبي؟ وهو يقدم مفاهيم متعدد، فالنص: ممارسة دالة- جهاز لغوي- شبكة من المعطيات الألسنية والبنيوية والايديولوجية- وعاء لدلالات متجددة- حيز لغوي متعدد المعاني. وقد يقبل المرء بعض هذه المقولات كما قد يرفض بعضها او كلها. لكن الأمر الهام هنا هو أن هذه الأسئلة وتلك المقولات جزء من المحاولات الحثيثة لعلمنة النص (علم النص) أو إرساء ما يسمى بنظرية النص» [(2)]، ولا شك أن منبع هذه الثورة المنهجية في الدراسات الأدبية هي لسانيات دوسوسير في كتابه الشهير " محاضرات في اللسانيات العامة". **تعدّ المقاربة النصية ترسيخا للمبادئ اللسانية في تطبيق المناهج الدراسية.**

---

[1] – شكري عزيز: من إشكالات النقد العربي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 1997، ص: 154.

[2]– المرجع السابق، ص: 154.

(*) النّص الشعري الواحد يختزل عالم الشاعر وينتج رؤيته.

حققت اللسانيات إنجازات نظرية وإبستمولوجية مهمة، سواء على مستوى المنهج والرؤية، أو على مستوى تقنيات وإجراءات التحليل. وبفضل هذا الإنجاز العلمي، تحولت إلى نموذج تمثيلي، تتطلع العلوم الإنسانية الأخرى إلى الاحتذاء به. فقد دشنت لسانيات دوسوسير إبدالات جديدة، تتجلى أساسا في منظومة من المفاهيم منها: الدال المدلول، النسق، الاعتباطية، القيمة... إلخ.

تبعا لهذا الجهاز المفهومي، **لم تعد اللغة مجرد وعاء للفكر، يدل مباشرة على الواقع؛ لأنها لا ترتبط بالعالم الخارجي بعلاقة طبيعية، ولا تحيل عليه مباشرة. إنها تدل على الواقع من خلال وسيط لساني تصوري، هو نتاج العلاقة بين الدال والمدلول.** وبناء على ذلك تبدو العلاقة بينهما اعتباطية؛ لذلك فإن المدلولات لا تعبر عن معطيات أو علاقات واقعية، ولكن عن تصورات ومفاهيم للأشياء، وبالتالي سيكون الاهتمام المركزي للسانيات هو دراسة هذا النظام الداخلي وليس ما هو خارج النظام من علاقات وموضوعات، تنتمي إلى خطاطة المرجع.

بما أن الأدب نظام دلالي، تلعب فيه اللغة دورا مركزيا، فإنه سيشكل حقلا مثاليا لتطبيق مقولات ومبادئ البحث اللساني، اعتمادا على هذه المرجعية اللسانية، سيتم النظر إلى الأدب على أنه نظام دلالي، ينبغي تركيز البحث على كشف علاقاته، وتحديد خصائص طبيعته، وهو ما ستصطلح عليه "الشكلانية" على تسميته ب: الأدبيـة (Littérarité)، يقول جاكبسون: "**إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما الأدبية، أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا**"[3].

هكذا سيحدد موضوع علم الأدب، في البحث عن خصائص وتجليات هذه الأدبية في الأجناس الأدبية، بهدف تفسير وصياغة القوانين المجردة للأدب؛ ولهذا السبب لم يتركز اهتمامه على الأعمال المفردة، بل على الأدب الممكن، " ليس العمل الأدبي في حد ذاته هو موضوع الشعرية، فما تستنطقه

[3] – جماعي، **نظرية المنهج الشكلي**، تر: إبراهيم الخطيب، بيروت/ الرباط، الشركة المغربية للناشرين المتحدين/ مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 198 ص: 35.

هو خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي... ولكل ذلك فإن هذا العلم لا يُعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن"[4].

يرسم هذا العلم الأدبي حدوده الإبستيمولوجية بإقصائه للتاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع من مجال اهتمامه، حتى لا يصبح مجرد فرع تابع لهذه العلوم. ما يهم في هذا الوضع الإبستمولوجي الجديد للأدب، أن مفهوم "الأدبية" يقود إلى تكريس أطروحة استقلال العمل الأدبي، عن شروط انتاجه وسياق تلقيه. فإذا كانت الدلائل تستعمل في الخطاب الأدبي العادي والعلمي، بهدف علمي صرف، هو التواصل، فإن الخطاب الأدبي يخرق هذه القاعدة حين يجعل وظيفة الدلائل، تتجه نحو إبراز الرسالة ذاتها. وقد بلور "جاكبسون" هذه الوظيفة الذاتية للأدب في مفهوم "الوظيفة الشعرية" التي تتولد من استثمار الدلائل في ذاتها؛ وهي ترتبط بالمتعة الجمالية.

لقد تمت كل هذه التطورات في حضن "الشعرية"[5]، باعتبارها العلم الذي يبحث في الممكن الأدبي، على قاعدة استقلالية النص الأدبي. فقد أعلن "بارث" "**موت المؤلف**"، ولم يعد هناك أي مسوغ منهجي ونظري للبحث عن معنى النص في سيرة الكاتب وظروفه الاجتماعية والتاريخية، وتمّ استبداله بالبحث عن هذا المعنى داخل النص: علاقة داخلية، علاقة اللغة والشكل.

قام النقد الحديث على اقصاء المقاربات الخارجية و ذلك باستبعاد سيرة المؤلف و السياق الخارجي و المرجعيات الايديولوجية، في مقابل الاهتمام بالنص كغاية في حد ذاته، "و لعل غاية النقد تظل هي اهتداء السبيل إلى حقيقة النص و الإبانة عما في طواياه من جمال، و الكشف عمّا في خفاياه من أبعاد، أو دلالات، أو علاقات، أو ثنائيات متشاكلة، أو متضادة، أو كل ما يمكن أن نطلق عليه، بالتعبير الفلسفي، "حقيقة النص"، و ذلك على الرغم من أن البنيويين و الشكلانيين، و اللسانيين و

---

[4]- تزفيطان تدوروف: **الشعرية**، تر: شكري المبخوت ورجاء سلامة، الدار البيضاء، دار توبقال، الدار البيضاء، ط2، 1990، ص: 23.

[5] - تزفتان تودوروف: "**الشعرية: بخلاف تأويل الأعمال النوعية، لا تسعى إلى تسمية المعنى، بل إلى معرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة كل عمل**، ص: 23.

(*) - في التفكيك الاختلاف هوية المعنى، والنص مفتوح منداح ليس له بنية أو مركز، والكتابة لها كينونة متفاعلة ذاتيا ومستقلة. اشكالات النقد، ص: 18.

التقويضيين يرفضون جميعا، بدرجات متفاوتة، أن يكون داخل النص حقيقة ما، غير لغته"[6]، يقول جاك دريدا : "

وتزايد الاهتمام بالمناهج الموضوعية الوصفية، وأخذت النظرة إلى الأدب ترى فيه موضوعا كسائر الموضوعات الطبيعية وقد أكد هذا التوجه رائد النقد الحديث "رتشاردز" في كتابه "مبادئ النقد" 1924. كل ذلك جذب الأنظار إلى ميدان العمل الأدبي نفسه بوصفه كيانا موضوعيا قائما بذاته ومكتفيا بوجوده دون إحالة على تصورات غيبية ودون الاستعانة بعناصر خارجية كالبيئة والعصر والجنس والسيرة الذاتية للمؤلف. إذن تتجلى الحداثة الغربية في توجه الفكر الأدبي نحو النظريات المعاصرة التي يجمعها إطار الفكر البنيوي.

خلاصة:

1- تزايد الاهتمام بالمناهج الموضوعية الوصفية، وأخذت النظرة إلى الأدب ترى فيه موضوعا كسائر الموضوعات الطبيعية، كل ذلك جذب الأنظار إلى ميدان العمل الأدبي نفسه بوصفه كيانا موضوعيا قائما بذاته ومكتفيا بوجوده دون إحالة على تصورات غيبية ودون الاستعانة بعناصر خارجية كالبيئة والعصر والجنس والسيرة الذاتية للمؤلف.

2- كان من نتائج اقتداء النموذج اللغوي في الدراسات الأدبية أن ظهرت خطوات حثيثة لعلمنة النص الأدبي في شكل الشعرية، [7] تزفتان تودوروف: "**الشعرية: بخلاف تأويل الأعمال النوعية، لا تسعى إلى تسمية المعنى، بل إلى معرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة كل عمل"**

3- قام النقد الحديث على اقصاء المقاربات الخارجية وذلك باستبعاد سيرة المؤلف والسياق الخارجي والمرجعيات الايديولوجية، في مقابل الاهتمام بالنص كغاية في حد ذاته، "ولعل غاية النقد تظل هي اهتداء السبيل إلى حقيقة النص والإبانة عما في طواياه من جمال، والكشف عمّا في خفاياه من أبعاد، أو دلالات، أو علاقات، أو ثنائيات متشاكلة، أو متضادة، أو كل ما يمكن أن نطلق عليه، بالتعبير الفلسفي، "حقيقة النص".

---

[6] – عبد المالك مرتاض: **في نظرية النقد**، دار هومة، الجزائر، طبعة 2010، ص: 51.

[7] – انظر: عمار زعموش: **مدرسة النقد الجديد والنقد الأدبي العربي** ، مجلة الآداب، ع 4، سنة 6، ص: 212.